ضـــوء علمى
على مشكلة اللاجئين العرب

للأســـتاذ عمر حليق

فى سنة ١٩٤٦ شهد أمام لجنة التحقيق الانجلو — أمريكية أستاذ يهودى هو البروفسور فرانك نوتستين رئيس دائرة علم السكان (ديموغرافيا) فى جامعة برنستون الأمريكية الشهيرة عن مستقبل السكان اليهودى فى فلسطين من الناحية العلمية الصرف وعلى ضوء مشاكل السكان . وكانت خلاصة تحقيقاته وتحليلاته المعززة بالأرقام والدراسات الإحصائية تفيد أن تزايد السكان العرب فى فلسطين هو أكبر خطر يهدد مطامع اليهود فيها وصرح نوتستين بما يلى بالحرف الواحد : (١)

« إن من الصعب جداً أن يتصور المرء الظروف التى يستطيع اليهود أن يصبحوا فيها أكثرية فى فلسطين . فإن العرب (ونسبة تزايد السكان بينهم بفلسطين أعلى نسبة فى العالم على الإطلاق) حائزون لجميع الإمكانيات الطبيعية والاجتماعية لأن يحتفظوا بهذه النسبة المرتفعة . ومهما يكن عدد اليهود المتدفقين على فلسطين كبيراً فإن مقدرة الزراعة والصناعة اليهودية على استيعابهم ستظل محدودة مقيدة بعوامل اقتصادية واجتماعية ، منها الرغبة فى الاحتفاظ بمستوى للمعيشة مرتفع ، ونزعة اليهود الأوربيين لتحديد نسلهم بولد أو اثنين ، وطبيعة الاشتراكية التى تجعل اليهودى فى فلسطين غير ميال إلى بناء كيان عائلى كبير . وهذا عكس ما ينزع إليه العرب

وحتى لو تسنى لليهود أن ينشئوا لهم دولة فإن من المستبعد أن يستطيعوا الاحتفاظ بالسيادة السياسية فى كل فلسطين أو فى جزء منها ، بسبب هذا التزايد الهائل بين السكان العرب . وحتى لو عززت اليهود دولة أو دول خارجية كبرى فإن هناك عوامل طبيعية واجتماعية وديمغرافية (بالإضافة إلى العوامل السياسية والاقتصادية) تجعل تزايد السكان بين العرب أكبر خطر حقيقى يواجه مطامع اليهود فى فلسطين .

وعلى ضوء هذه الحقائق فإن أكبر الظن أن حماسة اليهود ونشاطهم والجهد والمال والتضحية الإجماعية التى بذلوها لبناء الدولة اليهودية ، وجعلها دولة حديثة مزدهرة ستذهب سدى . وسيجد اليهود أنفسهم بحكم هذه العوامل الديمغرافية عاجزين عن تحقيق التفوق العددى والسيطرة السياسية للاحتفاظ بالسيادة الفعلية فى فلسطين » اهـ .

هذه شهادة عالم يهودى مهما قلبتها وجدت فيها ، على ضوء علم السكان ، حقائق راهنة تلقى ضوءاً قوياً على مشكلة اللاجئين العرب يساعد على تفهم مصلحتهم ومصلحة الوطن الفلسطينى الذى يحبونه ويتطلعون إلى الاستقرار فى ربوعه إلى أن تهب عليهم وعلى إخوانهم فى الوطن العربى الأكبر رياح موانية لإتمام الصراع الفاصل مع اليهودية العالمية فى أرض الميعاد .

وهذه الأمنة العلمية تلقى كذلك ضوءاً على هذا الجدل الذى يسود المحافل العربية الآن بصدد مسألة العرب الذين أقصاهم الإرهاب والإجرام اليهودى عن ديارهم ، وهى مسألة ستحتل مكان البروز من أعمال لجنة التوفيق التى بعثت بها هيئة الأمم إلى فلسطين والتى تتناقل الصحف الآن أنباء نشاطها .

فهناك رأيان بصدد مشكلة اللاجئين العرب : رأى يدعو إلى العودة واستعادة الأموال والممتلكات حتى ولو لم تسو المسألة الفلسطينية تسوية نهائية . والرأى الآخر يتناول مسألة العودة هذه من ناحية عملية ، فيقول إن طبيعة السلوك اليهودى فى منطقة نفوذه فى فلسطين لا تدعو مطلقاً إلى استتباب على حياة نصف مليون من العرب .

والواقع أن عملية اليهود فى إجلاء السكان العرب بواسطة الإرهاب اليهودى عملية مستمدة من الحقائق البينة التى أكدتها شهادة نوتستين هذا وغيره من خبراء مشاكل السكان . والقيادة الصهيونية الدولية أمهر من أن لا تشعر بخطورة هذه الحقائق وأن لا تحتال للتغلب عليها بواسطة مذابح « دير ياسين » وحيفا وترستجا وألف حادثة وحادثة من أعمال الإجرام اليهودى المنظم

(١) Frank W, Notestèn pand Ernest Jurkat Population Problems of Palestime .

ولو أخذنا تحليلات نوتستين هذا من ناحيتها العلمية لاستطاع الداعون إلى عودة اللاجئين العرب إلى منازلهم وديارهم وحقولهم ومرابعهم فى فلسطين استنباط حجج قوية قد تكون قاسية تتطلب روحاً جبارة وأعصاباً حديدية وتنظيما قويا ووعياً سياسياً حساسا ، ولاستطاع هؤلاء الداعون إجابة مخالفيهم فى الرأى على أساس « الأمر الواقع » كذلك .

فإن إقامة أقلية عربية كبيرة فى منطقة احتلال اليهود ، له ذيول عملية بعيدة الخطورة والخطر على مستقبل الكيان اليهودى إذا تحققت لهذه الاقلية العربية حقوقها الثقافية التامة وضمانات سياسية واقتصادية . وتوفير هذه الشروط مستطاع عمليا وقانونيا ودوليا . وستكون هذه الأقلية العربية مكونة من ستمائة ألف شخص على الأقل وهو عدد السكان العرب بموجب خارطة الأمم المتحدة للتقسيم . ولن يستطيع اليهود حين يعود العرب إلى ديارهم جلب أكثر من ١٠٠ ألف إلى ١٥٠ ألف يهودى من الخارج خلال الأعوام الخمسة القادمة ، وذلك بسبب المقدرة الاقتصادية اليهودية على الاستيعاب ، وهى مقدرة ستحددها تحديداً سيئاً إغلاق الأسواق العربية فى وجه الإنتاج اليهودى ومنع الجوالى اليهودية فى الشرق العربى من أن تعود إلى فتح المبادلة التجارية مع يهود فلسطين وتعزيز اقتصادياتهم كما فعلت فى السنين السابقة عن طرق إيطاليا واليونان وغيرها . وسبب آخر هو طبيعة المجتمعات اليهودية فى الخارج . فإن يهود أمريكا لن يتركوا بحبوحة الرخاء فى العالم الجديد لاختيار تجربة الصهيونية الشيوعية فى فلسطين ، وكذلك حال يهود غربى أوربا .

وقد تكاثرت مؤخراً الأنباء بأن النظم الشيوعية القائمة فى شرق أوربا ، ونسبة أولى الأمر من اليهود فيها كبيرة ، قد بدأت تحول بين هجرة ما تبقى من اليهود فى منطقة النفوذ الشيوعى لتحتفظ بسند لها أمام سخط الأكثرية من غير اليهود .

والقيادة الصهيونية تتطلع إلى أن تسد هذا العجز فى سياسة تهويد فلسطين ومشكلة التمدد فى برنامج الهجرة الطامة — تتطلع إلى جلب الـ ٨٠٠ ألف يهودى الذين يستوطنون مختلف أقطار الشرق العربى وشمالى أفريقيا . وهذه ناحية لا يبدو أن صناع السياسة و العالم العربى يعتبرها ما تستحق من دقة واهتمام

ولقد كان عدد العرب فى فلسطين فى مستهل الغزوة اليهودية (١٩١٩) حوالى ٦٥٠ ألفاً فأصبحوا بعض مضى ٢٥ عاماً مليوناً ونصف المليون تقريباً ، وذلك بسبب هذه العوامل الديمغرافية الفريدة التى ذكرها الخبير نوتستاين وغيره من الباحثين فى مشاكل السكان . فنستنتج من ذلك أن بقاء ٦٠٠ ألف عربى بين ظهرانى ٩٠٠ ألف يهودى الآن سيقلب أوضاع هذه الأكثرية اليهودية رأساً على عقب فى بضعة عشر عاما . وهذه طريقة عملية على غاية من الأهمية فى تقرير مصير المطامع الصهيونية فى فلسطين والشرق العربى .

كل ذلك بالإضافة إلى العواقب السياسية الخطيرة فى العالم العربى إجمالا وهى التى تستلزمها رعاية مصالح السكان العرب فى منطقة النفوذ اليهودى ، وما سيترتب على ذلك من استعداد نفسانى وعسكرى يضمن دوام اتجاهات العرب نحو القضية الفلسطينية كلما ارتفعت شكاوى العرب المقيمين بين ظهرانى اليهود فى فلسطين .

وإذا كان الداعون لتفادى عودة اللاجئين العرب إلى ديارهم فى المنطقة اليهودية يبنون دعوتهم على نظرة عملية واقعية فإن الداعين إلى العودة يبنون دعوتهم على أسس عملية واقعية صرفة مستمدة من طبيعة التزايد الهائل بين السكان العرب ، وطبيعة مستقبل الصراع بين اليهودية العالمية والوحدة العربية .

والرياح الدولية لا بد أن تهب مواتية للسفينة العربية عاجلا أو آجلا . وإن الحرب الفلسطينية قد أخذت تتمخض عن نزعة عسكرية صادقة واتجاه عملى إلى الإصلاح فى الجهاز الإدارى والنظم السياسية والاقتصادية والوعى الاجتماعى .

هذه تحليلات ولفتات قد تفيد عند البت فى مستقبل اللاجئين العرب . ومسألة البت أكبر من أن تعالج فى بحوث عارضة وهى تتطلب دراسات شاملة لا يصلح أن تكون العاطفة أساسها الوحيد . فهذا الاتجاه العاطفى إذا تجرد من المعرفة العالمية قد يولد عكس ما يتوخاه العاطفون ، وبسبب ارتجالا فى السلوك على النحو الذى صيغ تاريخ القضية الفلسطينية بطابع النكبات المتلاحقة .

(نيويورك) عمر عليق

معهد الشؤون العربية الأمريكية